زهرتى[1]

بقلم محمود حسن اسماعيل

ولى زهرةٌ طيَّبْتُ من عطرها دَمِى
وضمَّخْتُ روحى من شذاها وأنفاسِى
على شاطىء من فَيْضِ روحى تفتَّحَتْ
وراحَتْ تَعُبُّ الرِّىَّ من نَبْعِ إحْسَاسِى
مكلَّلَةً بالنُّورِ تَحْسِبُ وَشْيَهَـا
وَميضاً من الصَّهْباء يُشرقُ فى كاسِ
تميسُ على قلبى إذا هزَّها الهوى
فتَفْضَحُ بالإدلال ريَّانَةَ الآسِ
غذَّاها السَّنا من زاخِرِ اللَّمْحِ فاغتدَتْ
تَبَلَّجُ فى هالاتِها .. فتنةَ النَّاس
كأنى بها نَفْحٌ من الخُلد رَوَّحَتْ
أفاويحُه عنى ضنَى عُمْرِىَ الآسِى[2]
بروحىَ من أنفاسها عطرُ جَنَّـةٍ
تراءتْ بحُلْمٍ رائعِ الطَّيف مِيَّاسِ
وأندى فجْرٍ أسْكر الروح نَسْمُهُ
وطهَّرَ بالأعطار إثمى وأرْجاسى !
بروحى حَنَـانٌ شَعَّ من جنَباتها
كما فاض فى جُنْحِ الدُّجَى ضوء نبراسِ
رشفْتُ نعيمى نَشقةً من عبيـره
وشرَّدْتُ آلامى على نَفْحِه الآسى ! !

(١) من ديوانه « أغانى الكوخ » الذى صدر حديثاً (٢) الحزين

مجموعات الرسالة

ثمن مجموعة السنة الأولى مجلدة ٣٥ قرشاً.
ثمن مجموعة السنة الثانيـة (المجلد الأول والمجلد الثانى) ٧٠ قرشاً
وثمن كل مجلد من المجلدات الثلاثة خارج القطر ٥٠ قرشاً

٧ ـ بين القاهرة وطوس

نيسابور الى طوس

للدكتور عبد الوهاب عزام

رجعت من مزار العطار الى قبر الخيام وأنا أنشد قول حافظ الشيرازى :

« جاء مرشدنا البارحة من المسجد الى الحانة . . »[1]

ولما رجعنا الى قبر الخيام قال بعض الحاضرين من الشرقيين كيف تركتم الخيام الى العطار ؟ قلت لكل رجل وجهته ، وإن لم يكن من القياس بد فصاحبنا أعظم من صاحبكم ، وأكرم حياة ، وأجل أثراً . فانصرف ثم عاد الىَّ وهو يقول : ليس أحد من المتأدبين فى الشرق والغرب يجهل الخيام ، وهذا أحد الوافدين من الأوربيين يسأل مَن العطار ؟ فهذه حجة لى ، قلت دعنى فانى لا أقيس عظماءنا بمعرفة الأوربيين وجهلهم ، ومدحهم وذمهم الخ

دُعينا الى الموائد فطعمنا ، وتكلم الشـــاعر الانجليزى درنكووتر عن الشعراء ومذاهبهم فى الحياة وقال : إنه لاينبغى أن يفضل شـاعر على غيره بصواب رأيه ، وسداد طريقته ، بل بمقدار إبانته عما أحسه فى هذه الحياة ، وأدركه فى هذا المعترك ؛ نحن لانستطيع أن نقتدى بالخيام فنمضى أوقاتنا بين امرأة جميلة وكأس ، وعود ، فان علينا فى هذه الحياة واجبات تأبى ذلك ، ولـكنا لانغض من قدر الخيام لأنه أبان عن رأيه بهذا الأسلوب الشعرى الجميل الخ

ثم أنشـد قطعاً من رباعيات الخيام كما ترجمها فيتز جرالد ؛ وأنشد أحمد الصراف مندوب العراق بالفارسية بعض الرباعيات ، وتكلمتُ فقلت بالفارسية : إننا منتبطون بقدومنا مدينة نيسابور العظيمة ، ذات الأثر العظيم فى الحضارة الاسلامية ، وها نحن أولاء بجانب الخيام الفلـكى الشاعر الـكبير ، فالى روحه الطاهرة منا تحية ودعاء . ولاننسى أن نرسل تحيتنا الى الشاعر العظيم ، والصوفى الجليل فريد الدين العطار ، ذى المآثر الخالدة فى الشعر والتصوف

(١) شب أز مسجد سوى ميخانه آمد پيرما

وإنا لنرجو أن تعود هذه البلاد سيرتها الأولى فى العلم والأدب ، وأن ييسّر الله لها السير فى سبيل الرشاد فى ظل صاحب الجلالة الشاه المعظم . .

فقام الأديب سيف آزاد صاحب مجلة إيران القديمة « إيران باستان » فتكلم وحيّا صاحب الجلالة ملك مصر ، وقال إنه قد ساءه أن علم اليوم أن جلالته مريض ، وطلب من الحاضرين أن يدعو له بالشفاء والعافية . وألقى الأديب رشيد الياسمى قصيدة من الضرب الذى يسمى فى عرف أدباء الفرس غزلاً . وهى مردوفة القافيـة . والرديف فى الشعر الفارسى أن تكرر كلمة بعينها آخر كل بيت ، ويبنى الروى على الكلمة التى قبلها . والرديف فى قصيدة الياسمى كلمة « رو » بمعنى الوجه . وهذه ترجمة القصيدة عفو الساعة :

قد إستنرّ وجهك فى كمال الظهور ، وصار من التجلى فى حجابٍ من ذلك النور

لا يرى أحد فى العالم وجهك ، وإن كان العالم مرآتك

إنى أدعوك حبيب الروح . إذ لا يتجلى وجهك إلا فى عالم الأرواح

ولّ وجهك شطرنا ، تحوّل عن الكون والمكان وجوهنا .

أيها الربيع لا تستر من العندليب خدّك ، فقد جعل وجهه كورق الخريف هجرك

فلا حرارة فى هذا القلب المتوقد ، ولا بسمة فى ذلك الوجه المورّد

لقد أمضيت العمر فى انتظار وحسرة ، وآمل أن يلوح وجهك لى مرّة

أيتها الشمس إنى من الشوق إلى شعاعك الوضاء ، أقلب كالهلال وجهى فى السماء

أبتغى أثراً من هـذا الوجه ، ولا أثر ، كما ابتغى اسكندر ماء الحياة فلم يظفر

إن تبشرنى بوجهك يوماً واحـداً ، وضعت وجهى على عتبتك أبداً

ان تطلب يارشيد الكنز فانصب ، فان السعادة لا تبدى وجهها لمن لم ينصب

قدّمنا الساعة خمساً وعشرين دقيقة ، وهى فرق مابين وقت طهران ونيسابور ، وركبنا والساعة ثلاث وربع بعد الظهر متوجهين تلقاء مشهد وبينها وبين نيسابور ١١٦ كيلاً ، فسرنا صوب الشرق والجنوب فى سهل كثير القرى والشجر ، فبلغنا قرية اسمها قدمگاه أى موضع القدم ، وسأذكرها فى الأوبة من مشهد . ثم اجتزنا بشريف آباد وعندها انعطفت الجادّة صوب الشمال فارتقينا جبالاً ضربنا فيهـا أربعين دقيقة ثم هبطنا إلى المشهد المقدس ، فدخلناه بعد مغرب الشمس

افترق الركب فنزل جماعة بفندق هناك ، ونزل آخرون فى دار أحد الكبراء ، جليل بك نصير زاده ، وكنت وزميلى الأستاذ العبادى ممن شرفوا بالنزول فى هـذه الدار المعمورة ، فلقينا من الحفاوة والرعاية مالا يُنسى

المشهد المقدس

فى عام اثنين وتسعين ومائة سار هارون الرشيد إلى خراسان لحرب رافع بن الليث بن نصر بن سيار ، وكان قد ثار بخراسان وأعيا الولاة

وفى صفر من سنة ثلاث وتسعين اشتد به المرض وهو بجرجان فسار عنها إلى طوس ، ونزل بضيعة اسمها سناباذ فى دار الجنيد بن عبد الرحمن . فلما أحسّ أجله أمر فحفروا له قبراً فى بستان الدار ، وأمر جماعة فنزلوا فيه وقرأوا القرآن . وتوفى نصف الليل ، ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة ، ودفن فى القبر الذى أعده

وفى سنة ثلاث ومائتين كان الخليفة المأمون بن هارون قافلا من خراسان يريد العراق ، وقد ثار عليه عمه ابراهيم بن المهدى ، فلما بلغ سناباذ نزل عنـد قبر أبيه أياما ، وكان معه علىّ الرضا بن موسى الكاظم ولىّ عهده ، فمات الرضا فى ذلك المكان فى شهر صفر ، فدفن إلى جانب الرشيد وفى هـذا يقول دعبل بن على الخزاعى فيما يزعم الرواة :

قبران فى طوس : خير الناس كلهم وقبر شرهم ، هذا من العجب

اشتهرت قرية سناباذ وسميت سـناباذ المشهد ، ثم أطلق « المشهد » على القرية ، وبهذا الاسم ذكرها المقدّسى وسماها

ابن بطوطة مدينة مشهد الرضا ، ونسيت على مر الزمن مدينة « نوقان » وصار اسمها اسم محلة فى المدينة الجديدة ، ونافست مدينة المشهد مدينة طوس فى إقليم خراسان حتى أحلتها . ثم اختفت طوس حين حاصرها ميرانشاه بن تيمور وفتحها فأخربها عام ٧٩١

وقد لقيت المدينة من غير الزمان سعادة وشقاوة ، وتقلبت بها أحوال مختلفة ، ولكن شأنها كان يزداد نباهة على مر العصور

عنى عظماء المسلمين منذ القرن الرابع الهجرى بمشهد الرضا والمدينة التى نشأت حوله . قال ابن الأثير فى أخبار السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوى : « وجدّد عمارة المشهد بطوس ، وكان أبوه سبكتكين أخربه . وكان أهل طوس يؤذون من يزوره ، فمنعهم من ذلك . وكان سبب فعله أنه رأى أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام فى المنام وهو يقول له : الى متى هذا ؟ فعلم أنه يريد أمر المشهد فأمر بعمارته » ثم بنى ابنه السلطان مسعود سوراً حول المشهد ليقيه غارات القبائل المجاورة . وفى القرن السادس الهجرى استولى الغزّ على المدينة ونهبوها ولكنهم أبقوا على مشهد الرضا . وكذلك نهبت فى القرن الثامن فى عهد السلطان محمود غازان من الملوك الايلخانيين

وأعظم الملوك عناية بالمشهد قبل عهد الصفويين السلطان شاهرُخ بن تيمورلنك (٨٠٩ — ٨٥٠) وزوجه جوهر شاد ؛ وسنذكرها حين الكلام على مسجدها العظيم

وكان عهد الصفويين عهد نماء وازدهار للمدينة ، فقد تنافس الملوك الصفويون فى تعمير المشهد وتجميله ، وتعمير المدينة كلها ، ولاسيما الشاه طهماسب الأول (٩٣٠ — ٩٤٨) والشاه عباس الكبير (٩٩٥ — ١٠٣٧) ، ولكن عناية الصفويين لم تكفها الغارات والنهب ، فقد غصبها أمراء الأزبك والشيبانية ثلاث مرات على رغم الصفويين وسيطروا عليها أزمنة مختلفة

وكذلك استولى عليها الأفغان حينما استولوا على إيران . ثم جاء البطل الكبير نادر شاه ، فأكثر الأقامة فيها واختط قبره بها ، وبنى فى المشهد الرضوى أبنية رائعة . ثم عادت إلى الأفغان حينما زلزلت دولة نادر شاه بتنازع خلفائه على العرش . وتداولتها حوادث أخرى حتى استولى عليها آقا محمد خان القاجارى ، وقتل سلطانها شاهرخ الأفشارى سنة ١٢١٠ . وفى العصر الأخير ثار بها على القاجاريين بعض الثائرين فتذرع الروس بهذا إلى الاستيلاء عليها ، فأطلقوا مدافعهم على المدينة فى ٢٩ مارس سنة ١٩١٢ ، وهى الآن تنال نصيبها من العمران والطمأنينة السائدين فى إيران اليوم

والمدينة على ارتفاع ٩٣٠ متراً وطولها ٥٩ وعرضها ٣٦ ، فى وادى كَشَف رود (نهر كشف) الذى ينبع على عشرين كيلاً إلى الشمال الغربى من طوس ويسمى أحياناً آب مشهد (نهر مشهد) ويصب فى نهر هراة (هرى رود) على ١٥٠ كيلاً إلى الجنوب الشرقى من مشهد ، وتبعد المدينة عن شاطئه سبعة كيلات إلى الجنوب . ويبلغ ارتفاع الجبال عندها ثلاثة آلاف متر . فهى باردة الشتاء ، جيدة الهواء .

ونهر كشف لايسقى المدينة ، بل يأتيها الماء من عين اسمها چشمه گلاس عند منبع نهر كشف فى قنوات طولها ٧٤ كيلاً جرّها إليها الوزير الكبير والأديب العظيم والشاعر المفلق شير على نوائى وزير السلطان حسين بن منصور بن بايقرا من أحفاد تيمورلنك — (المتوفى سنة ٩١٢ هـ)

وهى أكبر مدن خراسان اليوم ، وتسمى أحياناً خراسان وسكانها زهاء سبعين ألفاً وتجارتها رائجة ، ولكنها ليست كعهدها الأول ، فقد كانت ملتقى طرق القوافل قبل أن يستولى الروس على التركستان وينشئوا سكة الحديد القزوينية . وبالمدينة شارعان عظيمان مشجران يخترقانها . وكان بها فى عهد نادر شاه ٦٠ ألف دار . وسكانها الآن زهاء ٨٠ ألفاً

وهى كثيرة المساجد ، والمدارس بها زهاء عشرين مدرسة للعلوم الدينية ، أقدمها المدرسة التى أسسها شاهرخ فى سنة ٨٢٣ ، ويقصدها الطلاب من أرجاء إيران ومن أفغانستان والهند ، فيحصلون العلوم الدينية بها تسع سنين ، ومن شاء أن يزداد علماً توجه إلى النجف الأشرف

ويحج إلى المشهد كل عام آلاف كثيرة يختلف التقدير فيها من ٣٠ ألفاً إلى مائة ألف . وبها مقابر كثيرة يحرص الشيعة على أن يدفنوا بها ، فتنقل جثثهم إليها من الأقطار البعيدة ، وتختلف قيمة القبور بها على قدر قربها من الحرم وبعدها